# الجزيرة الفراتية بين الصراع الفارسى البيزنطى
# من القرن الرابع الميلادى إلى الفتح الإسلامى
## (ما قبل ٨ هـ - ٦١هـ / ٦٢٩م - ٦٨٢م)

أ.د /عفاف سيد صبره

أستاذ التاريخ الوسيط

كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر

١٤٢٤ هـ/٢٠٠٤م

# الجزيرة الفراتية بين الصراع الفارسى البيزنطى من القرن الرابع الميلادى إلى الفتح الإسلامى

يتناول موضوع البحث منطقة الجزيرة الفراتية والتى سنحدد موقعها الجغرافى لاحقاً – لأنها من أهم مناطق الوطن العربى الإسلامى حالياً، وتشهد ساحاتها وأراضيها صراعاً دولياً كبيراً للهيمنة عليها، لما تتمتع به من أهمية جغرافية واقتصادية وسياسية كبيرة.

ولعل ما تمر به بلاد العراق حالياً من محاولات دولية للهيمنة عليها، وفرض النفوذ السياسى على أراضيها، وانقساماتها الطائفية والعرقية، والتى تجعلنا نوجه أنظارنا إليها، داعين الله عز وجل أن يرفع عنها هذا البلاء لأنها تمثل القلب لهذا الكيان الإسلامى، فإذا توقف نبضه فستموت بقية الأعضاء، لأن معظم بلدان الجزيرة الفراتية – موضوع البحث –وجزءاً من بلاد العراق، وإن كان بعض منها يخضع حالياً لنفوذ قوى دولية أخرى مثل إيران وتركيا.

إن الأحداث المعاصرة والتى نعيشها الآن كانت حافزاً ودافعاً لى لاختيار هذه المنطقة فى مرحلة تاريخية قبل ظهور الإسلام، حددت لها القرن الرابع الميلادى والذى يمثل فترة استقرار الأسرة الساسانية التى أعادت القوة للدولة الفارسية سنة ٢٥٨م، وكذلك يمثل هذا القرن تأسيس القسطنطينية فى الشطر الشرقى للإمبراطورية الرومانية سنة ٣٣٠م.

هاتان القوتان اللتان مثلتا قمة الصراع العالمى فى العصور الوسطى حيث خضعت مدن الجزيرة الفراتية لهما، وتوزعت بينهما تتقاذفها التيارات السياسية والدينية لكلا القوتين، وتلعب بمصائرها وبانتماءاتها السياسية والدينية نتائج الحروب المشتعلة بينهما.

كأن هذه المنطقة عاشت تاريخاً قدياً مماثلاً لما تتعرض له فى هذه الأيام من صراع دولى على تقسيمها بين المشاركين فى قهرها وإعدامها، معنى ذلك أن الصراع بين الفرس والروم فى هذه الفترة التاريخية كان يحدد أوضاع وأحوال مدن وبلدان الجزيرة الفراتية.

**أولاً : الحدود الجغرافية للجزيرة الفراتية**

قدم لنا الجغرافيون المسلمون آراء عديدة حول حدود الجزيرة الفراتية من مختلف الجهات.

فقد أشاروا إلى أقسامها المختلفة وحدودها بثلاثة أقسام :

**١ـ ديار ربيعة**

وتتألف من الأراضى الواقعة شرق نهر الخابور الكبير المنحدر من مدينة رأس العين، ومن الأراضى التى تقع شرق نهر الهرماس المنساب فى وادى الثرثار باتجاه نهر دجله، وكذلك على ضفتى دجلة من أراضى تنحدر بإنحدار النهر من تل فافان إلى تكريت جنوباً، وتشمل الأراضى الواقعة غرب دجلة حتى نصيبين الواقعة وسط الجزيرة[١].

**وتشمل ديار ربيعة البلدان التالية :**

أ- جزيرة بن عمر، والتى كانت تسمى جزيرة الأكراد وتقع على الضفة الغربية من المجرى الأوسط لنهر دجله[٢].

ب- بلد وتقع شمال الموصل[٣].

جـ- الموصل، ولها العديد من القرى وهى شمال العراق.

د- ماردين، وتقع فى أطراف الروافد العليا للخابور.

هـ- دنيسير.

و- دارا، تقع إلى الجنوب من ماردين[٤].

---

(١) لستيرنج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرانسيس، وكخائيل عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥، ص١١٥.

(٢) ياقوت الحموى، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م، جـ٢، ص ١٣٨.

(٣) ياقوت، المصدر السابق، جـ١، ص ٤٨١.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م، ص١٩٩.

ز- نصيبين، وتقع على الطريق من الموصل إلى الشام[١].

ح - أذرمة، وهى من قرى نصيبين[٢].

ط- كفرتوثا، وتقع على أحد الروافد التى تكون نهر البليخ[٣].

ك- رأس العين، وتقع على نهر الخابور[٤].

وتل موزون بين رأس العين وسروج وتل بنى سيار وتنيز وتقع على ضفة الخابور، وعرابان وتقع على الخابور، والشمانين جنوب عرايان، وماكسن على ضفة الخابور والفدين على الضفة الشرقية للنهر وواسط التى استحدثت فى العصر الأموى وهى غربى الفرات، وبرقعيد قرب نصيبين ومن قرى الموصل وسنجار وتقع وسط ديار ربيعة، وتل أعفر عزب الموصل، والحضر وهما من مدن وسط الجزيرة القديمة[٥].

**٢- ديار بكر**

وتشمل المدن التالية والتى تمتد من منبع دجلة وتشمل مدن: ميافارقين وآرزن وسعرت وآمد وحصن كيفا وفافان وثمانين[٦].

**٣- ديار مضر**

وتشمل المدن التى تقع فى غربى الجزيرة محاذياً للفرات من سمسياط حيث يغادر سلاسل الجبال منحدراً إلى عانة مع السهول التى يسقيها نهر البليخ رافد الفرات المنحدر من حران[٧].

وهذه المدن هى: جسر منبج، قلعة الدوسر، الرقة، الخانوقة، قرقسيا والرحبة وآلوسه، وهيت والرهاوسروج وحران وجروان.

---

(١) ياقوت، المصدر السابق، جـ٥، ص٢٨٨.

(٢) ياقوت، لمصدر السابق، جـ١، ص ١٣٢.

(٣) ياقوت، المصدر السابق، جـ٤، ص ٤٦٨.

(٤) ليسترنج، المرجع السابق، ص ١٢٥.

(٥) انظر ياقوت، المصدر السابق، جـ٢، جـ٣، جـ٤، الإدريسى، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩م، جـ٢، ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

(٦) ليسترنج، المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٧) المرجع السابق، ص ١١٥.

## ثانياً : عناصر السكان فى مدن الجزيرة الفراتية

ازدحمت مدن الجزيرة بعناصر سكانية وطوائف عرقية عديدة. ولعل هذه السمة كما أوضحنا هى الغالبة حتى أيامنا هذه على هذه البلاد وسنحاول تحديدها بصورة عامة حيث تشمل:

١- العرب : وكانوا يشكلون فى هذه الفترة غالبية سكان الجزيرة الفراتية، حتى إنها عرفت ببيت عربابة لكثرة العرب فيها، وكان بعضهم مستقراً والبعض من البدو وقد تعددت وتناثرت قبائلهم[١].

٢- السريان أو الآراميون : وهم من الشعوب السامية التى استقرت فى منطقة الجزيرة الفراتية قبل الإسلام وسماهم اليونان بهذا الاسم أثناء ترجمة التوراة إلى اليونانية، وقيل أنهم تركوا إسمهم القديم بعد اعتناقهم النصرانية وتسموا بالسريان وانقسموا بحسب المذهب إلى سريان مشارقة وهم النساطرة وسريان مغاربة وهم اليعاقبة ولغتهم هى الآرامية التى عرفت بالسريانية وانتشروا فى عدد من مدن الجزيرة الفراتية، وقد يكون انتشار النصرانية بينهم بسبب اختلاطهم بالعرب المتنصرة من رعايا الفرس، وانتشر بينهم بشكل خاص المذهب النسطورى، وذلك بتأثير مدرسة نصيبين[٢].

٣- الأكراد : كانوا أحد عناصر سكان الجزيرة، استقروا فى عديد من مدنها قبل الإسلام فنزلوا ماردين وكفر عزى وجزيرة الأكراد التى عرفت فيما بعد بجزيرة بن عمر[٣].

٤- الفرس : وهم عنصر آخر من عناصر السكان نزلوا فى عدد من مدنها وعلى رأسها سنجار وظل منهم بقايا فى المدن التى خضعت للفرس مثل نصيبين.

---

(١ ) سعاد العمرى، الجزيرة الفراتية من الفتح الإسلامى حتى نهاية العصر الأموى، دراسة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤١٦ هـ ص ١٣٥.

(٢ ) سعاد العمرى، المرجع السابق، آرثر كريستنسن، إيران فى عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٩٥٧، ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

(٣ ) بيغوليفسكيا، نينا فيكتور فنا، العرب على حدود بيزنطة وإيران، ترجمة صلاح الدين عثمان، الكويت، ١٩٦٤، ص ٩٠ - ٩١.

٥- الروم : وكانوا من المناطق البيزنطية أو من المناطق التابعة لها وشكلوا أبرز سكان الجزيرة[١].

وبعد إستعراضنا لحدود الجزيرة الفراتية وما شملته من مناطق وبلاد وعناصر سكانها نود أن نحدد طبيعة القوى التى سيشملها البحث والذى تحددت له الفترة من القرن الرابع حتى الفتح الإسلامى لهذه البلاد فى القرن السابع الميلادى.

كانت القوى السياسية التى جاورت الجزيرة الفراتية ونشرت سلطانها السياسى والحربى عليها تشمل :

**أ- الدولة البيزنطية : أو الدولة الرومانية الشرقية.**

اتخذت الدولة الرومانية مسارها ناحية الشرق منذ عصر الإمبراطور دقلديانوس ٢٨٤ - ٣٠٥م حيث اتخذت من نيقوميديا عاصمة لها، وبعدها وفى عصر الإمبراطور قسطنطين الكبير قام بتأسيس مقر وعاصمة للإمبراطورية الرومانية في الشرق وهى مدينة القسطنطينية، وذلك عام ٣٣٠م حيث تقع على البسفور وعند التقاء قارتى أوروبا وآسيا[٢]. وبذلك تقاربت دولة الروم مع هذه البلدان التى تجمعها الجزيرة الفراتية، وبدأت فى فرض سلطانها السياسى عليها، علماً بأن معظمها كان خاضعاً من قبل لسلطان روما.

**ب- الدولة الفارسية الساسانية.**

قامت هذه الدولة بعد انتهاء الأسرة البارثية فى ٢٢٦م على يد أردشير بن بابك الذى قتل الملك البارثى أرطبان الخامس وكون ملكاً لأسرته الساسانية ويذكر أنه وطئ بقدمه رأس الملك الأعظم[٣]. وإذا اعتبر البيزنطيون أنفسهم خلفاء قياصرة الرومان، اعتبر الساسانيون أنفسهم خلفاء قورش سنة ٥٥٩ ق.م[٤].

---

(١) بيغوليفسكيا، المرجع السابق.

(٢) Ostrogorsky, History of the Byzantine state, Oxford, 1965, p.40.

(٣) محمد عبد القادر محمد، إيران منذ فجر التاريخ حتى الفتح الإسلامى، القاهرة، مكتبة الأنجلو، ط١، ١٩٨٢، ص١٦٣.

(٤) زبيدة عطا، الدولة البيزنطية من قسطنطين إلى أنستاسيوس، دار الفكر العربى، القاهرة، ط١، ١٩٧٧، ص ٧٩.

ومنذ القرن الثالث الميلادى بات الخطر الفارسى ملموساً وظل مصدر حيرة وإرباك للدولة البيزنطية، فالنضال ضد أكاسرة فارس يعتبر أهم ما واجه البيزنطيين من مشاكل حربية وسياسية[١].

بدأت القوتان البيزنطية والفارسية تتطلعان بعين ملؤها الشر، وتناوران من أجل الحصول على حليف فى هذه الأقاليم وسعت كل منهما لتدعى لنفسها قراراً من السيادة على المناطق المتاخمة للولايات الرومانية، ورغم أن العلاقات بين الفرس والرومان على الجبهة الشرقية قد اتسمت بطابع التيقظ والحذر والنزاع المستمر، إلا أن الفرس كانوا يمثلون للرومان خصماً يختلف تماماً عن أولئك البرابرة الذين أغرقوا الإمبراطورية بسيل طوفانهم العرم، فقد كان الفرس أصحاب تقاليد مرعية وحضارة تقابل حضارة العالم اليونانى الرومانى، حتى أنه كان فى مقدور المؤرخ الرومانيى ثيوفيلاكت "القط الأفطس" أن يكتب فى نهاية القرن السادس قائلاً: "منذ البدء قضت العناية الإلهية أن تزدان الدنيا بعينين مضاءتين، مملكة الرومان القوية القادرة، وصولجان الحكمة الفارسية"[٢].

أصبحت منطقة الجزيرة الفراتية من مناطق النزاع ومطمعاً لهاتين القوتين العظميين، حيث دار الصراع طويلاً بينهما وكانت بلدان الجزيرة هى الغنيمة والربح الذى تتحصل عليه القوة الغالبة.

ولقد كان للموارد الاقتصادية التى تمتع بها مدن الجزيرة أن ساعدت على زيادة المطامع خاصة ثروتها الحيوانية، ومراعيها وأرضها الزراعية، وما اشتهرت به من صناعات إضافة إلى شبكة الطرق التجارية التى تتحكم فيها.

كانت ديار ربيعة التى امتدت من شمال تكريت والموصل إلى نصيبين وسنجار وبازبدى تحت السيادة الفارسية أما ديار بكر وديار مضر، وجزء من ديار ربيعة من ضمنها رأس العين فقد بقيت فى أكثر الأوقات تحت السيادة البيزنطية[٣].

ونود أن نوضح أن هذه السيادة لم تكن ثابتة طوال فترة البحث وإنما كانت تتغير

---

(١) Cam – Méd – Hist, Vol., X11, p.109.

(٢) هسى، العالم البيزنطى، ترجمة رأفت عبد الحميد، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٢، ص١٠٢.

(٣) محمد عبد القادر، المرجع السابق، ص ١٧٨.

وتتبدل حسب العمليات العسكرية والتى كانت تحدد المهزوم من المنتصر، وحسب اتفاقيات الصلح التى كانت ترسم الحدود فيما بينهما.

وسوف نتتبع شكل الصراع الذى دار بين القوتين لنوضح أن الجزيرة الفراتية كانت هى الأرض التى اشتعلت فوقها نيران الحرب وكانت هى الغنيمة والربح الذى تحصل عليه القوة الغالبة.

**جـ- القبائل العربية المجاورة**

نقصد بالقبائل العربية قبيلتا الغساسنة والمناذرة. فقد كان على حدود كلا الدولتين تعيش قبائل بدوية عربية، فعلى الحدود الرومانية كان بنو غسان الذين هاجروا من اليمن واستوطنوا أرض حوران حيث كان هناك قوم عرفوا بالضجاعمة قد استقروا هناك ورضخوا لحكم الرومان ودانوا بالنصرانية قبل مجيء بنى غسان ثم اعترفت الدولة البيزنطية بهم ووضعتهم تحت حمايتها واتخذتهم أعواناً لها ضد المناذرة والفرس، وكان ذلك زمن الإمبراطور البيزنطى انستاسيوس أواخر القرن الخامس[١].

ويذكر جيبون أن اعتناقهم المسيحية يرجع لتأثير الديريين المسحيين كسيمون العمودى والرهبان الذين عاشوا فى الصحراء السورية، واستغلتهم بيزنطة لحماية طرق التجارة، والتصدى لغزوات الآخرين، كما وجدت فيهم أداة صالحة لحماية حدودها ضد توسع الفرس[٢]، وأصبحوا دولة حاجزة Buffer State، كما أصبحوا يجمعون الضرائب من القبائل العربية الأخرى القريبة منهم ويقدمونها للروم[٣]. ومن أبرز ملوكهم الحارث بن جبلة ٥٢٨ – ٥٦٩م المعروف بالأعرج والذى عاصر من أباطرة بيزنطة الإمبراطور

---

(١) محمد بيومى مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ط٣، ١٩٨٢م، ص ٥٦٤، أحمد فخرى، دراسات فى تاريخ الشرق القديم، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ط٤، ١٩٨٤، ص ٢٣٧.

(٢) جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، القاهرة، ١٩٦٩، جـ٦، ص٣٣.

(٣) مهران، المرجع السابق، ص ٥٦٢.

جستنيان ٥٢٧ – ٥٦٥م[١]. ومن أكاسرة الفرس قباذ ٤٤٨ – ٥٣١. وكسرى أنو شروان ٥٣١ – ٥٧٨م، ومن أمراء الحيرة المناذرة المنذر الثالث ٥٢١ – ٥٥٤م[٢].

ولقد استخدم الفرس في المقابل قبيلة عربية أخرى وهم بنو لخم، أدت لهم نفس الوظيفة فاستقرت في الحيرة وكونت مملكة قوية فى جنوب بابل تدين بالولاء لهم وهم المناذرة ولقد غمرت مملكة المناذرة بحكم موقعها الجغرافى هذا بالقرب من بابل القديمة، وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من الكوفة فى نهاية طريق يجتاز شبه الجزيرة العربية، فأصبحت مركزاً مهماً للقوافل، لم يسع الساسانيون إهماله، ومن ثم فما تكاد تقيم فيه سلالة عربية حتى يضعوها تحت حمايتهم[٣].

ولقد اشتبكت كلتا القبيلتين فى صراع دائم لحساب فارس وبيزنطة ووصلت كلتاهما إلى أوج مجدها فى نهاية القرن السادس، كما ذكرنا فى عهد الحارث بن جبلة الغسانى والمنذر بن ماء السماء فى الحيرة.

وتعتبر هذه القوى المجاورة هى المحركة للأوضاع السياسية ولنوع السيادة على مناطق الجزيرة الفراتية وهى القوى التى استعرت الحروب على أراضيها.

## الصراع البيزنطى الفارسى وأثره على التبعية السياسية لبلدان الجزيرة الفراتية

### أولاً : على عهد أسرة الإمبراطور قسطنطين الكبير ٣٣٧ – ٣٧٨م

عندما انتهى الإمبراطور قسطنطين الكبير من الحروب التى خاضها ضد خصومه السياسيين، قام بتوحيد الإمبراطورية تحت رايته، وبدأ يتحرك ناحية أعداء الدولة الخارجين، وكان أبرزهم الفرس الذين كانوا سبباً رئيسياً فى اتجاه الأباطرة ناحية الشرق، وذلك لأنهم استولوا على كثير من ممتلكات الروم هناك خاصة فى منطقة الجزيرة الفراتية

(١ ) نولدكه، تيودور، أمراء غسان من آل جفنة، ترجمة قسطنطين رزيق، وبندلى خورى، بيروت، ١٩٣٣، ص٩.

(٢ ) نولدكه، المرجع السابق، ص١١.

(٣ ) مهران، المرجع السابق، ص ٥٧٩.

وأرمينيا، كما شاركه أبناؤه من بعده قسطنطين الثانى، وقنسطانز وقسنطنطيوس.

فى هذه الفترة تولى عرش فارس كسرى سابور الثانى ٣٠٩ - ٣٧٩م، وهو من أقدر ملوكهم حيث استمر يحكم سبعين عاماً، ولقب بسابور العظيم[١]. واشتهر باسم سابور ذى الأكتاف لما حققه من انتصارات على القبائل العربية اليمنية[٢]. وترك لقسطنطيوس بوصفه حاكم الشرق أمر التصدى له خاصة أن قسطنطين الكبير كان قد أعد حملة لقتال الفرس قبل وفاته.

بدأ قسطنطين الثانى الحرب الفارسية فى عام ٣٣٧م بعد اجتماعه بشريكيه حيث اتجه إلى نصيبين الفراتية، وأعاد تنظيم جيشه بها، وأمد فرقه بزرد مدرعة وطالب الولايات بزيادة إمداداتها بقوات المقاتلة، وفى نفس الوقت عقد تحالفاً مع أرشاك الثانى ملك أرمينيا الذى كان قد فر إلى بلاده، ولجأ إلى الرومان بسبب الغزو الفارسى لبلاده وصحبه عدد من نبلائه، وعبر الإمبراطور نهر تجريز بثلاث جيوش، وتركهم الإمبراطور يمرون إلى أن اصبحوا قرب سنجار وأصبح بينهم، وبين الجيش الإمبراطورى مسافة قصيرة وبدأ القتال الحقيقى فى سنة ٣٤٤، وكانت أفضل الفرق الإمبراطورية غير موجودة لذلك أمر الإمبراطور جنوده بالانتظار خاصة وأن الفرس كانوا يسيطرون على منابع الماء، ولكن العطش دفع الجند لعدم الاستجابة لأمر الإمبراطور فهاجموا المعسكر الفارسى وحققوا انتصاراً سريعاً وفر سابور إلى تجريز، ولكن الفرس عند الماء استطاعوا جمع شتاتهم، واستعادة معسكرهم، فإن هزيمتهم الأولى اضطرتهم لالتزام الراحة والهدوء فترة ثم العودة للهجوم فهاجموا نصيبين الفراتية أثناء ثورة ماجنتيوس وقاومهم أسقف المدينة

---

(١) محمد عبد القاهر، المرجع السابق، ص ١٧٦.

(٢) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ١٤٥، الكرديزى، زين الأخبار، ترجمة عفاف زيدان، القاهرة، دار الطباعة المحمدية، ط١، ١٩٨٢، ص٣٨.

يذكر أنه عندما بلغ العرب خبر موت هرمز قدموا من بلاد عبد قيس والكاظمة والبحرين ومكثوا فى إيران شهراً وأطلقوا أيديهم للسرقة وقطع الطرق، وعندما بلغ شابور ذو الأكتاف السادسة عشرة من عمره جمع جيشاً وتوجه إلى ديار العرب وقتل الكثير منهم حتى كف أيديهم عن الناس ثم إستن سنة فأمر أى عبد عربى يؤتى به من أى مكان فليثقبوا كتفه وليعلقوا فيها حلقة، ولهذا السبب كانوا يلقبونه بذى الأكتاف وباللغة الفارسية "هو به سنبان".

يعقوب واضطرهم للانسحاب[١]. تجدد الصراع مرة أخرى عام ٣٥١م رغم توقيع معاهدة الصلح سنة ٣٥٠م، وقدم الوالى الرومانى للتفاوض مع الفرس، ولكن سابور كان قد بيت النية على مهاجمة الأراضى البيزنطية، ومهد لذلك بعقد اتفاقية، وطلب من الإمبراطور استعادة مناطق نهر العاص وأرمينيا وهدده فى حالة رفضه القيام بعمل حربى ضده وكان القائد الرومانى هذا يتصدى له فقد جاوز مرحلة الشباب، وازداد موقف الرومان سوءاً بفرار أحد القواد مع فرقته، وانضمامه إلى الفرس، فتقدم سابور إلى الأرضى الفراتية واستولى على آمد "ديار بكر" ونهب أراضيها، ثم استولى على سنجار، وجزيرة بن عمر، وصار للفرس اليد الطولى فى الأراضى الفراتية[٢].

قام الفرس بقتل أعداد غفيرة من سكان مدينة سنجار وأسروا جميع سكانها ومن بقى حياً من الفرق الرومانية أمر سابو بنفيهم إلى بلاد نائية[٣].

ومن بين الأسرى الذين تم أسرهم عدد من النساء وكان من بينهم زوج المستشار جروجاسيوس وهى امرأة جميلة جداً وكانت ترتعد خشية أن يغتصبها المنتصرون، فأمر الملك بإحضارها عنده ثم وعدها بأن ترى زوجها عن قريب، وبأن أحداً لا يستطيع أن يعتدى على عفافها، وكان يأمل من ذلك حث هذا المستشار على تسليم مدينة نصيبين إلى الفرس[٤].

وهكذا استخدم الفرس وسائل الحرب والحيلة والضغوط النفسية على الرومان من أجل التخلى عن مدن الجزيرة الفراتية.

قرر قسنطنطيوس الخروج بنفسه للحرب، وأمر الفرق الموجودة فى الغال بالانضمام إليه، لكن جوليان رفض فقرر الخروج ومحاسبته وانتظر ليرى ما يقوم به سابور، لكن أنباء بلغته عن تراجع سابور وأنباء أخرى عن جوليان، فاضطر لسحب قواته من آسيا والتوجه إلى الغرب حيث وافته منيته[٥].

---

(١) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ١٤٦.

(٢) Ostrogorsky, op.cit, p.47.

(٣) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٢٣٨.

(٤) المرجع السابق.

(٥) Ostrogorsky, op.cit, p. 45.

عندما تقلد جوليان العرش فى ١١ ديسمبر سنة ٣٦٠م قرر خوض الحرب ضد سابور لاستيلائه على ممتلكات البيزنطيين فى الجزيرة الفراتية، فوصل إلى انطاكية سنة ٣٦٣م ولكن أهلها أحرقوا معبد دافين، فأثاروا غضب الإمبراطور عليهم، واتجه بعد ذلك إلى هيرا بوليس عبر الفرات(١).

خرج سابور على رأس جيشه لملاقاته، وكان جيش جوليان يبلغ خمس وستون ألف مقاتل، وانضم إليه الأسطول الذى يقوده القائد قسطنطيوس عند الفرات، وقرر جوليان مهاجمة العاصمة، وعدم مواجهة القلاع التى يستغرق فتحها وقتاً، ورغم قطع الفرس للأهوسة وتدمير بعض الفرق فإن الإمبراطور تقدم وهزم جيشاً فارسياً وأجبرهم على التراجع داخل أسوار المدينة، وعرضوا على الإمبراطور السلام لكنه رفض تشبهاً بالإسكندر المقدونى، فقام الفرس بإحراق الأقاليم أمامه.

قتل جوليان أثناء هذه الموقعة الفارسية دون أن يحقق نتيجة، وذلك سنة ٣٦٣م حيث لم يستمر فى الحكم غير عامين(٢).

كان لمقتل جوليان فى المعركة وتولية جوفيان ٣٦٣ - ٣٦٤م أكبر الأثر على تحرك الفرس فى ظل حكم كسرى سابور الثانى وذلك لمهاجمة الجيش الإمبراطورى، كما هاجم الجيش فرسان العرب الذى أبى جوليان أن يدفع لهم الجزية إذا انضموا إليه، وتحطمت أفضل الفيالق الإمبراطورية، واستطاع البيزنطيون صد الهجوم، ولكن عاود الفرس الهجوم الذى استمر أربعة أيام عانى الجنود فيها من الجوع والعطش وأرسل سابور يعرض السلم، فوافق جوفيان، وبعد أربع أيام من المفاوضات عقد صلحاً لمدة ثلاثين عاماً يقضى باستعادة الفرس للولايات الواقعة وراء دجلة، وكذلك على مدينتى نصيبين وسنجار من مدن الجزيرة الفراتية وتعهد بعدم التدخل فى شئون أرمينيا وتركها لفارس(٣).

كانت هذه الشروط المهينة مثار غضب الجميع، حتى إن أحد الجنود صاح أنه يفضل

---

(١) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ١٤٧.

(٢) أسد رستم، الروم فى سياساتهم وحضارتهم وديانتهم وثقافتهم، بيروت، ١٩٥٥، جـ١، ص٧٦.

(٣) Ostrogosky, **op.cit**, p. 47, **Cam – Med – hist**, Vol. I, p.25.

أن يقاتل عشر مرات على أن يقبل هذه الشروط وكان دافع الإمبراطور لقبولها الاحتفاظ بقواته سليمة حتى يصل إلى العاصمة ويتمكن من مواجهة أى مغتصب قد يتصدى له، ولقد بكى أهل نصيبين وتضرعوا إلى الإمبراطور إلا يسلمهم للفرس، لكنهم أصروا عل تمسكه بالمعاهدة، وقد رفض السناتو الرومانى قبول تلك الشروط المهينة[١].

حرمت بيزنطة إزاء ذلك من أى تدخل، ولم يكن منتظراً أن ترضى بهذا الموقف، فلم تكف طوال تلك المدة عن إثارة الفتن، وكان ذلك على عهد الإمبراطور فالنشيان الذى حكم الجزء الغربى من الإمبراطورية عام ٣٦٤م وشاركه فى حكم الجزء الشرقى أخاه فالنز فى نفس العام.

كان لموقف بيزنطة من الفرس أن دارت بينهما موقعة بيفان Bayvan التى انتصر فيها فالنشيان، وتم عقد سلام بين الطرفين استمر حتى عهد ثيودسيوس الثانى ٤٠٨ – ٤٥٠م[٢].

## الصراع البيزنطى الفارسى وأثره على مدن الجزيرة الفراتية على عهد أسرة ثيودسيوس

اعتلى الإمبراطور ثيودسيوس الأول العرش البيزنطي سنة ٣٧٩م وذلك بعد موت سلفه فالنز فى موقعة أدرنه والتى كانت ضد القوط الغربيين سنة ٣٧٨م. وبموته انتهت أسرة قسطنطين، وبدأت أسرة جديدة أسسها ثيودسيوس الأول والذى حكم حتى عام ٣٩٥م. وفى عهدة تم عقد معاهدة سلام مرضية مع فارس ضمنت له فترة غير قصيرة من الهدوء والسلم استمرت حتى عهد ثيودسيوس الثانى ٤٠٨/ ٤٥٠م[٣].

أما بالنسبة للدولة الفارسية فقد استمر هذا السلام معمولاً به علماً بأن الملك الفارسى سابور الثانى توفى ٣٧٩ وخلفه مجموعة من الأكاسرة الضعاف وهم أردشير الثانى ٣٧٩ / ٣٨٣م وسابور الثالث ٣٨٣/ ٣٨٨ وبهرام الرابع ٣٨٨/ ٣٩٩ وأهم فترة فى حكم

---

(١) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ١٥٩، أسد رستم، المرجع السابق، جـ١، ص ٨٤-٨٥.

(٢) Vasiliev, **A History of the Byzantine** p. 67 empire, Vol., I, Madison, 1964.

(٣) جوزيف نسيم، تاريخ الدولة البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٨م، ص ٦٣.

هؤلاء هى الفترة التى حكم فيها بهرام الرابع والتى اقتسم فيها الفرس مع الرومان ملك أرمينيا، فدخل قسمها الشرقى وهو أكبرها تحت حماية فارس وقسمها الغربى تحت حماية الرومان[١].

ولابد أن نوضح هنا مدى العداء الذى كان يكنه الفرس للنصارى سواء من الرومان أو غيرهم، وكانت الاضطهادات عنيفة عليهم منذ عام ٣٣٩م حتى وفاة سابور الثانى، فقد وقع الاضطهاد خاصة فى ولايات الشمال الشرقى المتاخمة للإمبراطور ولابد أن نشير هنا أن المسيحية لم تكن قوية فى معظم مناطق الجزيرة الفراتية، لكن بعضها مثل الرها كانت بها جاليات نصرانية كبيرة[٢].

تولى يزدجرد حكم فارس ٣٩٩/ ٤٢١م وقد اتسمت فترة حكمه الأولى بالتسامح مع النصارى ويؤكد على ذلك ابنه بهرام الثانى فى حديث له عن والده الذى ستتغير سياسته مستقبلاً تجاه النصارى بقوله "**إن أباه كان قد افتتح أمرهم باللين والمعدلة فجحدوا ذلك أو منهم من جحده ولم يخضعوا له خضوع الخول والعبيد للملوك، فأثاره ذلك إلى الغلظة وضرب الأبشار وسفك الدماء**"[٣].

ومن الأمثلة التى تؤكد السياسة السمحة التى سار عليها يزدجرد فى بداية حكمه تجاه المسيحيين خاصة فى مناطق الجزيرة الفراتية أنه أخذ ثيودسيوس الثانى وهو طفل قاصر تحت حمايته، وذلك علامة على المجاملة التى ليس لها فى الواقع قيمة عملية، فأقر الملك الفارسى بضرورة وضع حد للنزاع بين الدولة ورعاياها النصارى ليعيشوا هادئين وأرسل وفداً برئاسة ماروتا أسقف ميافارقين الفراتية والمعين من قبل الإمبراطور البيزنطي إلى كسرى يزدجرد بإعادة بناء الكنائس المخربة، وإطلاق سراح المسجونين بسبب عقيدتهم من النصارى، وبعد عدة سنوات من ذلك بعث يهب الله الخليفة الثانى لإسحق إلى القسطنطينية لإتمام الصلح بين الإمبراطوريتين[٤].

---

(١) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٢٤٩.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٥٣ - ٢٥٤.
(٣) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٢٥٦.
(٤) المرجع السابق، ص ٢٥٧.

ولعل سياسة يزدجرد المسالمة هذه مع نصارى المنطقة كانت تعكسها أسباب سياسية فإنه بتوطيد السلام مع الإمبراطورية الشرقية، كان يستطيع أن يجمع جهوده فى تقوية السلطة الملكية.

تحطم السلام القائم بين الفرس والبيزنطيين فى نهاية عهد يزدجرد نتيجة لتصرفات بيزنطة وأساقفتها، مما اضطره لاتخاذ موقف مضاد، ومنها أنهم عتوا وتحدوا الرأى العام حتى لم يكن هناك مفر من مقابلة الشر بمثله.

ويرجع السبب مباشرة إلى أن أرمينيا اتخذت فى هذه الفترة طابعها المسيحى، وكتبت أبجديتها، وترجم الإنجيل إلى اللغة اللاتينية، وأخذت بيزنطة تعمق الشعور الدينى لدى المسيحيين فى شطرى أرمينيا سواء القسم الخاضع للفرس أو بيزنطة، فسعت إلى إقامة الكنائس المسيحية إلى جانب تدخلها لنصرة المسيحيين المضطهدين فى أرمينيا، فأدى هذا إلى تجدد العداء، خاصة بعد أن هرب عدد من المسيحيين إلى الأراضى الرومانية، ورفض الإمبراطور تسليمهم(١).

بعد وفاة كسرى يزدجرد سنة ٤٢١م بدأت سلسلة من المذابح تجاه المسيحيين قام بها إبنه بهرام الخامس فأرسلت بيزنطة قوات بقيادة أردابورس Ardaburus حيث التقت بالقائد الفارسى نارسيس فى ارزنجان(٢)، وفى سبتمبر سنة ٤٢١م تراجع نارسيس إلى نصيبين الفراتية. وتقدم أردابوروس إلى آمد "ديار بكر" ثم حاصر نصيبين وذهب بهرام بنفسه لرفع الحصار، وأرسل إلى الغرب المنذر ملك الحيزة لمهاجمة أراضى سوريا، وذلك للعلاقة الحميمة التى تربط بهرام بالمنذر بن النعمان(٣).

غرق عدد من العرب فى الفرات والباقين حاقت بهم الهزيمة، وعند اقتراب بهرام تراجع القائد الرومانى، وعبر الحدود واستمر القتال لمدة شهر وشعر الإمبراطور

---

(١) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ١٨٥.

(٢) المرجع السابق.

Ostrogorsky, op-cit, p. 51, Vasiliev, **op.cit**, p.95.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، دراسات فى تاريخ العرب، جـ١، عصر ما قبل الإسلام، الإسكندرية، ١٩٦٧.

ثيودسيوس أن الحرب لن تأتى بنتيجة حاسمة، ففضل التفاوض ولكن بهرام أراد نصراً أولاً ليحصل على شروط مجزية من الرومان، فأمر جيشه بالقتال، واحتفظ بالسفراء عنده إلى أن تنتهى الحرب، وكان لانتصار الرومان بعد ذلك أن اضطر بهرام لفتح باب المفاوضات من جديد، وقرر الطرفان وقف الاضطهاد وعقدوا صلحاً لمدة مائة عام فى ٤٢٤م وكان مما تضمنه عدم استغلال العرب الخاضعين لكلا الطرفين فى العدوان، ولعل هذا الشرط كان مستحيلاً لأن بهرام تربى على يد النعمان والد ملك الحيرة المنذر بن النعمان وهو الذى حمل كهنة الفرس على تتويجه[١].

لم يدم السلم طويلاً إذ بنى الرومان فى سنة ٤٣٨م قلاع ثيودوسيوس فى أرمينيا، ولما تولى كسرى الجديد يزدجرد الثانى فى نفس هذا العام قرر استغلال أوضاع هذه الإمبراطورية السيئة فى الغرب فعبر الحدود عند نصيبين وهاجم عدداً من المدن فى سوريا وبذلك كانت مدن الجزيرة الفراتية الخاضعة للفرس تتخذ قواعد للهجوم العسكرى على مناطق عديدة.

وقد اجتاحت قوات أخرى أرمينيا الرومانية سنة ٤٤١م ولم يكن لدى الرومان جيوش كافية لإيقافهم، فتم عقد صلح لمدة عام فى مقابل مبلغ من المال والوعد بتسليم بعض المسيحيين الهاربين اللاجئين لبيزنطة[٢].

وقد تعرضت مدن الجزيرة الفراتية خاصة جالياتها المسيحية فى السنة العاشرة من حكم يزدجرد الثانى لحركة اضطهادات وبدأ رجال الدين بهذه البلاد الدعوة إلى جهاد الفرس وسادت هذه الموجة فى أرمينيا أيضاً، ولكن تباغض الأسرات الكبيرة فيها حال دون تحقيق ذلك، فظلت أرمينيا مشتتة عدة سنوات[٣].

---

(١) الكرديزى، زين الأخبار، ويذكر أن يزدجرد والد بهرام كان مشهوراً بالقسوة وبتعذيب الناس ولم يعدل فى الرعية واستولى على أموالهم، ورزق بابن فأسماه بهرام وكان شديد الرشد والنجابة، وكان هو الابن الوحيد ليزدجرد، فكان يخشى عيه مغبة أن يفسده يوما من سوء طبعه، فأعطاه إلى أمير العرب النعمان بن المنذر بن عمر بن ربيعة ابن مضر، فأخذه إلى أرض الحيرة ورباه ورعاه وشيد له قصرى الخورنق والسدير، انظر جـ١، ص ٤٠.
يذكر كريستنسن ص ٢٦٠ : أنه إن كان قصر الخورنق ينسب بناؤه إلى النعمان اللخمى، فإن تاريخه يعتبر بغير شك يرجع إلى تاريخ أبعد قدماً.

(٢) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ١٨٦، الكرديزى، المصدر السابق، ص ٤٤.

(٣) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

## الجزيرة الفراتية على عهد الأسرة الليونية ٤٥٧ - ٥١٨م

قامت الأسرة الليونية بعد انتهاء أسرة ثيودسيوس وتولى التربيون العسكرى لداكيا المدعو ليو، والذى وافق السناتو على توليه لعدم وجود إمبراطور من سلالة ثيودسيوس وذلك عام ٤٥٧م حيث استمر يحكم حتى عام ٤٧٤م.

وقد توالى على حكم هذه الأسرة خمس أباطرة كان آخرهم الإمبراطور أنستاسيوس الذى حكم من عام ٤٩١ - ٥١٨م وقد عاصر مؤسس هذه الأسرة وفاة يزدجرد الثاني كسرى فارس سنة ٤٥٧م، حيث تولى بعد ابنه هرمز الثالث والذى دخل فى صراع مع أخيه فيروز انتهى بقتله وتولية فيروز عرش الأكاسرة[١].

وتؤكد المصادر أن عهد فيروز لم يصادف نجاحاً فى الدفاع عن الممتلكات الفارسية من القوى البيزنطية أو غيرها حتى إنه قتل فى إحدى المعارك العسكرية سنة ٤٨٤م، وتولى بعده أخاه بلاش والذى عرف بمسالمته للنصارى ولأهل البلاد الفراتية وغيرها الواقعة تحت حكم الفرس[٢]، ومع ذلك فقد عزل وحل محله أخاه قباذ سنة ٤٨٨ وقد ساعده فى الوصول إلى العرش قبيلة الهون.

وقد اعتاد الفرس شن الحرب على هذه القبيلة لذلك كان البيزنطيون يقدمون أحياناً عوناً مالياً للأكاسرة منذ عهد الإمبراطور زينون ٤٧٤/ ٤٩١م لمساعدتهم ضد هؤلاء والذين يعتبروا عدواً مشتركاً للفرس والروم. وقد استمرت هذه المساعدات حتى وفاة فيروز كسرى فارس ٤٨٤م حيث رفض الإمبراطور زينون تقديم هذه المساعدة لخليفته بلاش الذى أعلن تأييده للحركة الانفصالية فى انطاكيا فأرسل له زينون يذكره بأحقية الرومان فى مدينة نصيبين قائلاً: "إن الضرائب التى تحصلون عليها من مدينة نصيبين تكفيكم، والتى كانت منذ سنوات عديدة يحصل عليها البيزنطيون"[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٢.

(٣) Bury, J.B. **History of the later Roman empire**, Vol. London, 1923, p.10.

كريستنسن، المرجع السابق، ص ٣٣٣.

ونتيجة لرفض البيزنطيين مساعدة الفرس لجأ كسرى قباذ إلى مهاجمة ميافارقين الفراتية، واستسلمت بدون قتال وتسلم من سكانها ضرائب عامين[١].

اشتهر عن عصر قباذ إلى جانب ذلك أعمال وحشية قام بها ضد المدن الفراتية، فتذكر المذبحة التى وقعت على سكان آمد "ديار بكر" بعد استيلاء قباذ عليها[٢]. ويؤكد على ذلك المؤرخ المعاصر بروكبيوس بقوله "إن الفرس حين دخلوا المدينة قاموا بمذبحة كبيرة فتقدم قسيس من قباذ وقال له: إنه ليس جديراً بملك مثلك أن تقتل الأسرى، فأجابه قباذ وكان لا يزال غاضباً: "لماذا أصررتم أنتم على قتالى فأجابه القسيس : قد أراد الله أن يضع آمد بين يديك لا بتدبير منا ولكن بفضل شجاعتك، فأمر الملك بوقف المذبحة، ولكن أباح نهب الأملاك واسترقاق جميع الأحياء من سكان المدينة وأن يختار له كل ذوى الكفايات فلما عاد إلى فارس مع الجيش وأسرى الحرب أثبت رأفته مرة أخرى وذلك بالسماح لجميع الأسرى بعد زمن قليل بالعودة إلى أوطانهم وقد ترك الملك القائد كلون مع فرقة صغيرة لاحتلال آمد، ولكن لا هذا القائد ولا قباذ أباحا لنفسيهما إتلافاً أو تخريباً لأية كنيسة فى آمد "ديار بكر" أو خارجها[٣].

حدثت مشاكل أخرى بين فارس وبيزنطة حول أرمينيا البيزنطية سنة ٥٠٢م عندما هاجم قباذ هذه المنطقة واستولى على ثيودوبوليس ودخل كونت أرمينية فى خدمة الفرس، ولم تكن لبيزنطة حامية قوية إلا فى منطقة قسطنطينياً، وأرسل الإمبراطور سفارة لقباذ تعرض السلم والجلاء عن أراضيها مقابل فدية مالية، ولكن قباذ رفض وقبض على الرسل، وتقدم الفرس إلى ملطية ثم آمد "ديار بكر" سنة ٥٠٣، وأرسل الإمبراطور عدداً من الفرق الإمبراطورية لم تحقق نجاحاً فى البداية، لكن قباذ فشل فى الاستيلاء على قسطنطنيا والرها فقرر الإمبراطور إرسال رئيس بلاطه سيلرز Celers الذى كان يتمتع بالمقدرة والشخصية القوية المحببة، حيث استطاع إعادة الوحدة للجيش وتحقيق انتصارات عديدة، وأعاد أرمينيا لبيزنطة، وأرسل قباذ قائده سباهبات Spahpat لعرض السلام على سيلرز، فرفض القائد البيزنطى فى البداية، لكنه عاد وقبل بعد فشله فى

(١) Bury, **Ibid**, p.11.

(٢) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٣٣٢.

(٣) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٣٣٢.

الاستيلاء على آمد، وانتهت المفاوضات بالتخلص من بعض القادة العرب فى كلا الطرفين، ومنح انستاسيوس إعفاءات للمدن التى قاست من الحصار[١]، لكن عكر صفو السلم قيام انستاسيوس ببناء قلعة دفاعية فى دارا وذلك عندما وضح ضعف الرومان ولتكون نقطة انطلاق للجيوش الرومانية ولحماية المناطق العربية التابعة للإمبراطورية من هجمات الفرس والعرب الموالين لهم، كذلك جعلوا فى داخل هذه القلعة فى دارا كل المتطلبات التى تسمح لهم بالقيام بمهامهم ورغم أن هذا الإجراء يخالف المعاهدات المعقودة بين الطرفين بشأن عدم إقامة قواعد عسكرية على الحدود فإن أنستاسيوبوليس استغل فرصة انشغال قباذ فى الحرب ضد الهون وسارع فى إنجاز هذا العمل الضخم الذى استغرق أكثر من عامين، وسارع لتقوية قلعة ثيودرسيوبوليس "أرضورم" فى أرمينيا الرومانية وحولها إلى قلعة حصينة وسماها انستاسيوس[٢]. ومع ذلك انتهى الأمر بعقد صلح بين الطرفين لمدة سبع سنوات، وافقت فيه بيزنطة على دفع تعويض بخصوص نقض العهد بالنسبة لتحصينات دارا[٣].

## الصراع البيزنطى الفارسى وأثره على بلدان الجزيرة الفراتية على عهد أسرة جستينيان ٥١٨ — ٦١٠م

يعتبر الإمبراطور جستين ٥١٨ - ٥٢٧م هو مؤسس أسرة جستينيان، وهو الذى استطاع أن يرتقى العرش بعد وفاة الإمبراطور انستاسيوس فى التاسع من يوليو ٥١٨م.

بدأ جستين عهده وفقاً للصلح المعقود بينه وبين الفرس والذى حقق سلاماً على المدن الفراتية التابعة لكلاهما. وقد عاصر جستين قيام قباذ بمحاولة تمكين إبنه كسرى الصغير على ابنه الأكبر كاووس، ولكى يضمن ذلك عقد مع الإمبراطور جستين صلحاً نهائياً ثم طلب منه أن يتبنى ابنه كسرى وهو عمل يؤدى إلى التزام الإمبراطور التزاماً أدبياً بالدفاع

---

(١) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

**Cam – Med – His**, Vol, I, p. 481.

(٢) محمد فتحى الشاعر، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٩، ص ٤٩.

(٣) Cam – Med – hist, Vol, P. 482.

عن قضية كسرى ضد من يطالبون بالعرش، فقبل جستين طلب قباذ لكنه اشترط أن يتم التبنى بالسلاح على الطريقة البربرية لا بوثيقة مسطورة، ولما لم يقبل قباذ هذا الشرط انقطعت المفاوضات التى أثار الفرس فيها طلبات لهم فى إقليم لازيكا فى القوقاز وظلت التسوية معلقة بين الدولتين[١].

بدأ الصراع بين فارس وبيزنطة بسبب الاضطهاد الذى بدأ يقوم به قباذ ضد نصارى جورجيا.

اعتلى جستينيان ابن أخت جستين العرش سنة ٥٢٧م بعد وفاة خاله ووفقاً لتنصيبه له إمبراطور مشاركاً فى حياته، وقد كانت البلاد فى هذه الآونة معرضة لأخطار الشعوب المجاورة فى الشرق، ومنافسة الفرس للرومان فى مناطق النفوذ فى بلدان الجزيرة الفراتية وغيرها، فضلاً عن التحكم الفارسى فى التجارة الدولية، خاصة وأن بلدانا كثيرة من بلدان الجزيرة كانت مراكز تجارية وطريقا يستخدمه الفرس لإنعاش اقتصادهم، وكذلك الرومان، ومع ذلك انتهج جستينيان أسلوباً دبلوماسياً منه بذل الأموال الذى اعتبره الحل الأمثل لمثل هذه المشاكل[٢]. وإذا لم يجد هذا الأسلوب مع أعدائه لجأ إلى أسلوب الوقيعة والدس والشقاق، وذلك بإثارة شعب ضد الآخر وإشعال نيران الغيرة والحسد والصراعات فيما بينها، كما اتخذ أسلوب التنصير بين سكان الجزيرة الفراتية وما يتبعها من مدن أرمينيا مما كان سبباً فى خروج الفرس لوقف التيار المسيحى بين سكان هذه البلدان والذى كان سبباً كبيراً فى تأجج الصراع بين القوتين حول فرض نفوذهما على هذه البلاد.

لم يكن الصراع الفارسى الرومانى فى هذه الفترة حول مناطق الجزيرة الفراتية وحدها، ولكن تعداه إلى مناطق أخرى كثيرة تسببت فى اندلاع الحرب بين الطرفين خاصة حول مناطق القوقاز والتى كان لها أكبر الأثر فى قيام الفرس باتخاذ الإجراءات المضادة انتقاماً من الرومان، ولعل عرضنا لهذه الحرب ليس إلا لتوضيح حقيقة وهى أن الجيشين الرومانى والفارسى اتخذا من الأراضى الفراتية الخاضعة لهما مراكز عسكرية تجهز بها

---

(١) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٦٩.

(٢) Diel, C., **Byzantium, greatness and decline**, T. from French by Naomi Walford, New Jersey, 1957, p.55

الحملات الموجهة ضد المدن القوقازية، بل واستعانوا بأهلها فى هذه الحملات، كما لابد أن نؤكد أن اقتصاد البلاد الفراتية كان يتأثر كثيراً من هذه الحملات العسكرية التى دفعوا تكاليفها من خزائنهم. ولقد انتقلت الجيوش الرومانية للعمل على الحدود الشرقية المجاورة للفرس، وعملت على تقوية الحصون والتحصينات هناك، ودخلت قوات بليزاريوس فى معارك هجومية، غير أنها منيت بالفشل الأمر الذى جعلها تتخذ موقفاً دفاعياً فى مدينة دارا الفراتية حتى سنة ٥٢٩م(١).

رأى الإمبراطور جستينيان التفاوض مع كسرى فارس قباذ، لكن هذه المفاوضة تعثرت من قبل الجانب الفارسى، مما دفع بليزاريوس إلى التحصن فى دارا الفراتية والتى حولها إلى قلعة عسكرية قوية، لذلك كان على الفرس تأمين حدودهم بالدخول فى معركة هجومية ضد بليزاريوس، غير أن نتيجة هذه المعركة كانت فى صالح الرومان، ولم يتمكن الفرس من هزيمتهم واقتحام دارا بفضل مهارة بليزاريوس العسكرية والتى تجلت فى هذه المعركة سنة ٥٣٠م(٢).

وعلى الرغم من الانتصار العسكرى الذى حققه جستينيان على الفرس فإنه كان تواقاً إلى إنهاء حالة الحرب معهم للإسراع فى إرسال قواته لمحاربة قبيلة الوندال الجرمانية فى شمال إفريقيا، غير أن الفرس كانوا فى غاية الغضب، لذلك احتد قباذ فى محادثاته مع السفير الرومانى الذى أرسله جستنيان، ووضع عدة شروط منها أن تكون مدينة دارا الفراتية منطقة منزوعة السلاح، ويبدو أن قباذ قد بيت النية على محاربة الرومان لأنه طرد السفير الرومانى دون التوصل إلى اتفاق(٣).

على أية حال استطاع الفرس مسح عار الهزيمة، وخاضوا معركة ضد بليزاريوس قرب مدينة الرقة الفراتية فى التاسع عشر من إبريل سنة ٥٣١م، حيث هزموا بليزاريوس على الرغم من فداحة الخسائر بين الطرفين(٤).

---

(١) Procopius, of Caesarea, **history of wars**, T by H.B. Dewing, New York, 1914-1940, Vol, 55p. 103-107.

(٢) **Ibid**, pp. 105 - 127.

(٣) Procopius, **Ibid**, pp. 141 - 145.

(٤) **Ibid**, p. 169.

ولابد أن نوضح هنا أثر هذه المعارك على هذه المدينة الفراتية وهى مدينة الرقة التى شهدت دماراً خطيراً وحطمت معظم استحكاماتها والقرى التى حولها، وأصبحت أرضها مستقراً لعدد كبير من الجنود الرومان الذين صرعوا فى المعركة.

كما نوضح نقطة أخرى مهمة وهى مشاركة قبيلة الغساسنة والذين تعاونوا مع الأباطرة الرومان بدءاً من عهد الإمبراطور أنستاسيوس، والذى خاض حروباً مع الفرس سبق الإشارة إليها من عام ٥٠٢ حتى عام ٥٠٥م.

ولقد شارك فى موقعة الرقة هذه قوات الحارث بن جبلة الذى عاصره الإمبراطور جستنيان[١] فقد كان يثق فى هذا القائد العربى ثقة كبيرة، حيث طلب منه مشاركته فى هذه المعركة، لذلك وقف إلى جانبه وسانده[٢].

على أن استئناف مفاوضات السلم بين الفرس والرومان حدث فى وقت كان فيه الفرس يحاصرون مدينة ميافارقين الفراتية، وذلك بعد وفاة كسرى قباذ مباشرة وتولية ابنه كسرى أنو شروان "خسرو الروح الخالد" بناء على وصية أبيه رغم أنه ابنه الثالث وليس الأكبر، وذلك فى الثامن من سبتمبر سنة ٥٣١م[٣].

استغرقت مفاوضات السلام عاماً إلى أن توصل الطرفان إلى وضع شروط المعاهدة الدائمة فى سبتمبر سنة ٥٣٢م، والتى أملى فيها الطرف الفارسى شروطه، والتى نصت على أن تكون مدينة دارا الفراتية والتابعة للرومان منزوعة السلاح إلى جانب شروط أخرى خارجة عن نطاق منطقة الجزيرة الفراتية.

والواقع أن هذه المعاهدة مست السيادة الرومانية إذ إن اشتراط الفرس بأن تكون دارا منزوعة السلاح هو بمثابة انتقاص من سيادة الرومان على أراضيهم لاسيما وأن هذه المعاهدة لم يرد بها شيء عن وجود منطقة منزوعة السلاح على الجانب الفارسى، كما نصت

---

(١) محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ٥٦٩، جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٦٧ - ١٩٧١، جـ٣، ص ٣٩٥.

(٢) Procopius, **op.cit**, p.171.

(٣) محمد فتحى الشاعر، المرجع السابق، ص ١٩٤.

المعاهدة على منح حرية العبادة لمسيحى فارس وجميع البلدان الواقعة تحت سيادتها ومنها مدن الجزيرة الفراتية[١].

على أن معاهدة السلام الدائمة لم يكتب لها البقاء سوى سبع سنوات حقق خلالها جستنيان العديد من الإنجازات الضخمة شرقاً وغرباً، الأمر الذى جعل كسرى أنو شروان يرى ضرورة المبادرة بتوجيه ضربة موجعة لجستينان، بعد أن أشارت كل الدلائل أن الإمبراطورية الفارسية ذاتها أصبحت معرضة للخطر إذا ما ظل الفرس يرقبون ما يجرى على الساحة دون حراك.

ولقد حدثت ظروف غيرت من شكل السلام القائم بين القوتين وذلك بخصوص المعاهدة التى جعلت من دارا الفراتية منطقة منزوعة السلاح كما رأينا – وأن ينتقل منها دوق إقليم ما بين النهرين إلى القسطنطينية، فإن هذه المعاهدة لم يرد بها شىء عن إقامة التحصينات الدفاعية سواء فى تلك المدينة أو فى غيرها من الأماكن التى درج الفرس على مهاجمتها خاصة مدن الجزيرة التى تتبع مدنها إحدى القوتين، لذلك أصبح من حق جستنيان إقامة ما شاء من التحصينات فى دارا نفسها المنزوعة السلاح أو فى غيرها[٢].

ولعل ذلك كان سبباً فى اعتقاد كسرى بأن جستنيان يخطط لأعمال عدوانية ضد الفرس وإلا فما هو الدافع الذى جعل الفرس يضعون شرطاً فى معاهدة السلام سنة ٥٦٢م ينص على الامتناع عن إقامة أو تقوية أسوار المدينة حتى لا تكون ذريعة لتجديد أى منازعات قد تطيح بمعاهدة السلام، والواقع أن تلك الأسباب كانت كافية لاتهام جستنيان بأنه خرق معاهدة السلام الدائم، لذا عقد كسرى العزم على فرض إرادته على جستنيان وضرب قواته فى المدينة القريبة من الحدود الفارسية عن طريق فرض إرادته، وذلك بتحصيل فدية كبيرة من كل مدينة تحاصرها القوات الفارسية، على أن يتم تدمير المدينة التى تبدى أية مقاومة، ولم يكن هدفه هو مجرد السيطرة على مدينة محددة لاستخدامها كورقة رابحة وأداة للضغط وفرض الإرادة الفارسية كما فعل والده قباذ مع الإمبراطور

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩٥.
محمد عبد القادر، المرجع السابق، ص ١٩١،
Procopius, **op.cit**, Vol. III, p. 83 – 89.

(٢) الشاعر، المرجع السابق، ص ١٩٧.

أنستاسيوس فى مدينة آمد الفراتية ٥٠٢ - ٥٠٥م، فبالرغم من محاولات جستنيان المحافظة على معاهدة السلام الدائم إلا أن كسرى كان قد أعد القوة لتنفيذ خطته، ولم يتلطف مع السفير الرومانى بل احتجزه عاماً كاملاً إلى أن يتم لكسرى الاستيلاء على كل الأموال الموجودة فى مدينة سورا Sura الفراتية والمجاورة لمدينة الرقة، بعد أن خدع أسقفها الذى كان قد تعهد بدفع الفدية التى حددها كسرى(١).

لم يكتف كسرى بذلك بل قتل العديد من أهالى مدينة سورا وأسر حوالى اثنا عشر ألفاً من سكانها، ثم أشعل النيران بها فى ربيع سنة ٥٤٠م. وبعد أن حقق خطته طرد السفير الرومانى وأمره إبلاغ جستنيان بما شاهده، ولاشك أن كسرى كان يعنى بذلك أن الحرب قد بدأت بالفعل بين القوتين العظميين.

استدعى كسرى الأسقف كانديوس أسقف الرصافة التابعة للجزيرة والتى تبعد تسعة عشر ميلاً عن مدينة سورا وأمر بفدية الاثنى عشر ألف أسير من أهالى سورا خلال عام من تاريخه مع التهديد والوعيد فى حالة عدم الدفع(٢).

كان القائد البيزنطى بليزاريوس مشغولاً بالحرب فى جبهة أخرى ضد القوط الشرقيين فى انطاكيا، لذلك وقع عبء القتال على القائد بوز Buzes الذى أقام فى مدينة منبج الفراتية دون أن يحرك ساكناً عند احتلال كسرى لمدينة سورا Sura، وإذا كان هذا القائد قد أحجم عن ملاقاة كسرى لضعف قواته فإن هذا لا يعفيه من مسئولية التقاعس عن رد العدوان واتهامه بأنه آثر السلامة عن التصدى للأعداء لحماية البلاد فى وقت الشدة(٣).

لم يقم بوز القائد الرومانى للشرق بالتصدى لكسرى عندما حاصر مدينة منبج الفراتية وإنما سبقه فى الانسحاب منها تاركاً بها حامية صغيرة، كما أن هذا القائد الرومانى لم ينفذ

---

(١) Procopius, **op.cit.**, Vol. II, p. 249.

الشاعر، المرجع السابق، ص ١٩٩٩،
بيومى مهران المرجع السابق، ص ٥٨٨،
آرثر كريستنسن، المرجع السابق، ص ٣٥٨.

(٢) الشاعر، المرجع السابق، ص ١٩٩.

(٣) الشاعر، المرجع السابق، ص ٢٠٠.

Bury, **op.cit**, p. 93.

خطته التى سبق وأن أعلن عنها إبان وجوده فى منبج من أنه سيقوم بتطويق العدو إذا ما حاول مهاجمة منبج وكذلك لن يسمح للقوات الفارسية بالحصول على الإمدادات، على أن كسرى اكتفى بفرض فدية على المدينة، ولم تتعرض للأذى[١].

أقام بوز بعد ذلك فى مدينة الرها فى الوقت الذى قرر فيه كسرى فرض فدية على أهلها ليسلموه أسرى مدينة انطاكيا، وقد تم ذلك عندما كان كسرى يجول فى الأقاليم الشرقية وقبل أن يعود إلى بلاده قام بهجوم على مدينة دارا التى تقيم فيها الحاميات البيزنطية[٢].

يتضح لنا أحوال المدن الفراتية وما كانت تلاقيه فى فترة هذا الصراع الطافح بين الفرس والروم وكيف تحملت جيوش القوتين ودفعت أموال الفدية والجزية للقوى الغالبة، ولم يكن الأمر هذا هو مصير المدن وإنما تحملت القرى الصغيرة مثل سورا وغيرها مغبة هذا القتال.

قام جستنيان باستدعاء قائده من الجبهة الانطاكية للمشاركة فى صد العدوان الفارسى والوقوف فى وجهه بعد فشل القيادة السابقة، لذلك انتهز فرصة انشغال كسرى أنو شروان بالحرب فى جبهة أخرى بالقوقاز للاستيلاء على لازيقا حتى يلتمس للفرس موضعاً على البحر الأسود يتيح لهم مهاجمة القسطنطينية ذاتها[٣].

لذلك تحالف مع القائد العربى الحارث بن جبلة الغسانى الذى شن غارة ناجحة على الأراضى الفارسية سنة ٥٤١م لتطهير المناطق الغربية من مدينة نصيبين الفراتية بعد أن عجز بليزاريوس عن احتلالها، بالرغم من محاصرته لها. وقد نجح الحارث فى هذه المهمة وعاد سالماً محافظاً على سلامة القوات التى كانت تحت إمرته[٤].

---

(١) الشاعر، المرجع السابق.

(٢) Procopius, **op.cit**, Vol. II, pp. 313 – 373.

يذكر الكرديزى : أن كسرى أنو شروان استولى على دارا والرها ومنبج وقنسرين وحلب وفامية وحمص وسلوكية وحاصر انطاكيا وتراقيا، انظر، زين الأخبار، ص ٤٨.

(٣) Procopius, **op.cit**, Vol. I, P. 171.

.عن ذلك راجع كريستنسن، المرجع السابق، ص ٣٤١.

(٤) Vasiliev, A.A. **Justinian the First**, Combridge, 1950, pp. 258 - 259.

استعان بليزاريوس مرة أخرى بالحارث بن جبلة لحصار مدينة دارا، فقام الحارث بإمداده باثنى عشر ألف مقاتل، وبالفعل نجح الحارث فى مهمته فى غزو الأراضى الفارسية وإحداث الخسائر بها فى الأرواح والممتلكات، وعاد بعد أن جمع الغنائم، على أن النصر الذى استطاع بليزاريوس تحقيقه بعد اجتيازه للأراضى الفارسية كان اقتحامه لقلعة فارسية وأسر من كان بها[١].

استمر كسرى فى محاولاته الدائمة لفرض نفوذه على مدن الجزيرة الفراتية، فكانت الرها المدينة التى حاول الاستيلاء عليها سنة ٥٤٠ لكنه فشل لقوة استحكاماتها لذلك عاود الهجوم عليها سنة ٥٤٤م راغباً فى الاستيلاء عليها وتدميرها ونقل سكانها إلى بلاد الفرس[٢] غير أن كل محاولاته العسكرية باءت بالفشل لقوة استحكام سور المدينة، وللمقاومة الصلبة التى أبداها الأهالى بالمدينة الذين تعاونوا مع القوات التى كانت بداخلها، لذلك اضطر كسرى إلى فك الحصار عن المدينة بعد أن فرض عليها مبلغاً من المال دفعته رهبة من الفرس سنة ٥٤٤[٣]. وبذلك اتضح أن البيزنطيين الرومان لا قبل لهم بمحاربة الفرس، لذلك طالبوا بعقد الصلح والهدنة مقابل دفع ما يحدده الفرس المنتصرون، وكان مقر هذه الجهود الدبلوماسية مدينة دارا الفراتية سنة ٥٦٢م، وتم التوقيع على هدنة لمدة خمسين عاماً، وما يهمنا فيها أن دارا ظلت مدينة منزوعة السلاح، وهو الشرط الذى كان موجوداً فى معاهدة سنة ٥٣٢[٤].

وبذلك تنفست مدن الفرات الصعداء لتوقف الحرب بين القوتين حتى يستطيع أهل هذه البلاد ممارسة حياتهم الطبيعية طبقاً للسيادة الواقعة عليهم سواء كانت بيزنطية أم فارسية، ولكن أمد هذا السلام كان مؤقتاً وذلك لوفاة الإمبراطور جستنيان سنة ٥٦٥

---

(١) الشاعر، المرجع السابق، ص ٢٠٢.

(٢) Procopius, **op.cit.**, Vol. II, p. 126 - 131.

(٣) Ibid.

(٤) Barker, **Justinian and the Later Roman empire**, London, 1966, pp. 112 – 124.

Vasiliev, **A history of the Byzantine empire**, Vol. I, pp. 138 - 139.

Ostrogorsky, **op.cit.**, p. 66.

Bury, **op.cit.**, Vol. II, pp. 120, 123.

وتولى ابنه جستين الثانى العرش ٥٦٥ – ٥٧٨ فوجدناه يقوم بنقض الصلح وإشعال الحرب بسبب رفض دفع ما هو مقرر عليه من الجزية للفرس[١].

ولعل الذى دفع جستين إلى ذلك لم يكن حماقة أو حباً فى القتال، وإنما لأنه واجه مشاكل مالية واقتصادية شديدة نتيجة لأن والده جستنيان أنفق أموالاً ضخمة فى سبيل تحقيق مشاريعه السياسية لإعادة البحر المتوسط بحيرة رومانية، فاستنفذت موارد الدولة وتركت خزائنها خاوية، وأفقرت الناس وأنهكت قواهم حتى أننا نلاحظ أنه فى أخريات عهده تبدأ الكوارث بالنزول على بعض مناطق الإمبراطورية[٢]. لذلك فلم يكن فى مقدور جستين إزاء هذه الظروف السيئة دفع الأموال المقررة عليه للفرس، لذلك شاءت إرادة الله ألا تنعم الأراضى الفراتية بالهدوء لاشتعال الحرب مرة أخرى فقد زحف الفرس ناحية الأراضى البيزنطية رغبة منهم فى المحافظة على الشروط التى تضمنتها المعاهدة المشار إليها، وترتب على ذلك أن ألحقت الجيوش الفارسية بالقوات البيزنطية هزيمة شديدة فى مدينة الرها الفراتية وقام الجند بعمليات تخريب واسعة، فقد أحرقوا ودمروا المدينة والقرى المحيطة بها.

كانت هذه الهزيمة صدمة كبيرة للإمبراطور جستين الذى لم يدر بخلده إطلاقاً أن يحدث مثل هذا فى يوم من الأيام، كذلك لم يسع الجيوش البيزنطية التى كانت تحاصر مدينة نصيبين الفراتية على أمل الاستيلاء عليها إلا أن ترفع الحصار عن المدينة، ولعل أخطر من ذلك هو سقوط دارا البيزنطية والتى تعتبر من أهم المواقع الفراتية الحصينة على الحدود الفارسية البيزنطية فى أيدى الفرس بعد حصارهم لها ستة أشهر، فكان لسقوطها وقع شديد على الإمبراطور جستين حتى أصيب بالجنون، ولم تستطع زوجته الإمبراطورة صوفية الحصول على هدنة لمدة عام واحد سنة ٥٧٤ إلا بعد أن دفعت خمسا وأربعين قطعة ذهبية[٣].

---

(١) Vasiliev, **op.cit.**, p. 170.

(٢) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص ٨٣.

(٣) Bury, **op.cit.**, Vol. II, PP. 95 – 101, Jones, A.H.M. the later Roman empire, Vol. I, Oxford, 1973, p. 305.

خلف جستين الإمبراطور تيبريوس الثانى ٥٧٨ – ٥٨٢م والذى عاصر وفاة كسرى أنوشروان سنة ٥٧٩م وتولية ابنه هرمز الرابع الذى حكم حتى عام سنة ٥٨٩م. وكل ما قام به تيبريوس أنه أقنع الفرس بتجديد معاهدة السلام بنفس الشروط القديمة، لكن هرمز فضل أن تفصل أرمينيا وأصر على هدنة لمدة خمس سنوات فى العراق، ووافق الإمبراطور على دفع ثلاثين ألف قطعة ذهبية إلى كسرى لمدة ثلاث سنوات ورغم ذلك ظلت العمليات الحربية دائرة فى أرمينيا وبلدان الجزيرة الفراتية(١).

لم يمتد العمر بالإمبراطور تيبريوس لتحقيق مشاريعه، وكانت الأمور كلها موكلة إلى خلفه الإمبراطور موريس ٥٨٢ – ٦٠٢م لتحقيق المشاريع.

ولعل ما يهمنا من أعماله هو مصير الأراضى الفراتية فى سلسلة الصراع البيزنطى الفارسى وكيف سيواجه المهانة التى لحقت باليزنطيين من ضياع أملاكهم فى الفرات، ولكن شاءت الظروف أن تنتهى المشكلة نهاية مرضية بوفاة كسرى هرمز واختلاف أبناء البيت الساسانى على الحكم، ومساعدة موريس لأحد المطالبين بالعرش وهو كسرى برويز المظفر "الثانى" حفيد كسرى أنوشروان، فبادر إلى إبرام معاهدة مع الدولة البيزنطية سنة ٥٩١م لها أهمية كبيرة بالنسبة للسيادة على الأراضى الفراتية إذ تنازلت فارس بمقتضاها للبيزنطيين عن أرمينيا الفارسية والجزء الشرقى من الجزيرة الفراتية بما فى ذلك مدينة دارا وميافارقين، ولم تنطو المعاهدة على شرط الجزية السنوية الذى كان مهيناً للدولة البيزنطية(٢).

توطدت العلاقة بين الإمبراطور موريس وكسرى أبرويز وتصاهرا حيث زوجه موريس من ابنته ماريا وأمده بأموال كثيرة، وذلك لأن موريس ساعد كسرى مرة أخرى فى استرداد عرشه من الخارجين عليه، حيث سمح له بالإقامة فى مدينة منبج الفراتية حتى تم القضاء على الخصوم وعودته للحكم(٣).

---

( ١) Jones, **Ibid**, p. 308.

( ٢) Ostrogorsky, **op.cit**, pp. 79 – 80.

كريستنسن، المرجع السابق، ص ٤٢٨م.

( ٣) Jones, **op.cti**, Vol. I, p. 311.

الكرديزى، زين الأخبار، جـ١، ص ٥٣.

ولقد كان للحروب الطويلة التى خاضتها منطقة الجزيرة الفراتية فى سلسلة الصراع الفارسى البيزنطى أن قلت مواردها كما اجتاحتها بعض الكوارث الطبيعية، مما دفع الإمبراطور موريس إلى تخفيض رواتب الجند إلى الربع مما تسبب فى عصيان الجند والقيام بمظاهرات عدائية ضد بيزنطية وإمبراطورها أسفرت عن طرد القائد البيزنطى إلى القسطنطينية، ويذكر أن ذلك كان من الأسباب التى أدت إلى ثورة الجند على الإمبراطور موريس وعزله عن منصبه(١).

تعرض الإمبراطور موريس لانقلاب عسكرى أطاح به حيث تم إجباره على التنازل عن العرش، ومغادرة القصر الإمبراطورى، وتم تتويج القائد العسكرى فوقاس فى ٢٣ نوفمبر سنة ٦٠٢م بموافقة السناتو وشعب العاصمة(٢). وما إن اعتلى فوقاس عرش الإمبراطورية حتى سعى للتخلص من الإمبراطور السابق موريس ومن أبنائه وتم قتله هو وخمسة منهم فى ٢٧ نوفمبر سنة ٦٠٢، وقد نجح أحد أبنائه الناجين وهو ثيودسيوس فى الفرار إلى كسرى فارس مستجيراً به وطالباً مساعدته، فأجاره ووعده بالمساعدة على استرداد عرشه ليرد له جميل أبيه السابق(٣).

استشار كسرى رجاله، فاختار لقيادة جيشه رجلاً شجاعاً يدعى روميزان، وحثه على مهاجمة البيزنطيين، وأطلق عليه شهر باراز.

وفى هذه المرحلة كانت مدن الجزيرة الفراتية هى مسرح العمليات العسكرية خاصة مدينة الرها والتى ناصب أهلها الإمبراطور فوقاس العداء، وتمرد بداخلها القائد الكسرى نارسيس الذى كان عليه قيادة منطقة بين النهرين حيث دخل بجيشه إلى الرها واستولى عليها وقتل مطران المالكيين رجماً بالحجارة، فأرسل إليه فوقاس جيشاً بقيادة جيرمان نجح فى حصار المدينة، وأخرج نارسيس منها وأسره وأرسله إلى القسطنطينية(٤).

---

(١) Ostrogorsky, **op.cit.**, p. 100.

(٢) Ibid.,

Jones, **op.cit.**, p. 311 – 312.

(٣) ليلى عبد الجواد، الإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور هرقل، القاهرة، دار النهضة العربية، سنة ١٩٨٥، ص ٤٤.

(٤) Gibbon, **E. The Decline and Fall of the later Roman Empire**, London, 1911, Vol. I, pp. 512 - 513.

تحرك الجيش الفارسى فى هذه الفترة فى اتجاه مدينة دارا الفراتية انتظاراً لوصول كسرى الذى وصل بعد أيام وقرر تقسيم جيشه إلى قسمين أبقى القسم الأول لحصار دارا وتوجه مع القسم الثانى إلى الرها لمهاجمة القائد البيزنطى جيرمان وجيشه، حيث تمكنوا من قتل عدد كبير من رجاله فى حين فر الباقون، وفتحت مدينة الرها أبوابها لكسرى ودخلت فى طاعة الفرس، وتلتها مدينة دارا التى طال حصارها لأكثر من عام ونصف حيث سقطت وعادت مرة أخرى إلى طاعة الفرس(١).

وعلينا أن نرأف بأحوال بلدان الجزيرة التى أضنتها الحروب وأفقدتها الحياة المستقرة، وتنوع السيادة عليها. وهاهى مدينة الرها قلعة المسيحية ومركز الكنيسة الشرقية تقع تحت السيادة الفارسية.

لم تكن دارا والرها هما المدينتان الوحيدتان اللتان سقطتا فى يد الفرس وخرجتا من السيادة البيزنطية، وإنما لحقت بهما معظم مدن الجزيرة فقد وقعت معظم أرمينيا البيزنطية فى أيديهم، ثم دخل القائد الفارسى شهرباراز ما بين النهرين وحاصر آمد "ديار بكر" وكذلك حران، وبذلك أصبحت كل مدن الجزيرة الفراتية تحت السيادة الفارسية(٢).

حاول الإمبراطور فوقاس لم الشعث وجمع الشتات، لكنه لم يجن غير الهزائم المتلاحقة.

ولا ننسى هنا أن نوضح أثر هذه العمليات العسكرية على مدن الجزيرة فقد ساد القلق والرعب بين سكانها بسبب سوء معاملة الجنود الفرس لهم، إضافة إلى عمليات السلب والنهب التى مارسوها فى المدن الواقعة فى أيديهم أثناء العمليات العسكرية(٣)، ويصف المسعودى الظلم الذى أوقعه كسرى بالرعايا الخاضعين له بقوله: "واستوحش من شريعة العدل وواضحة الحق فعدل إلى الجور والعسف بخواص رعيته وعوامها وحملها على ما لم تكن تعهد وأوردهم إلى ما لم يكونوا يعرفونه من الظلم"(٤).

---

(١) Ostrogorsky, **op.cit**, p. 93.

(٢) Ibid.

(٣) بيغوليفكسيا، ثقافة السريان، ص ٣٠٤ - ٣٠٥، سعاد العمرى، المرجع السابق، ص ٢٥٤.

(٤) المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين، طـ٤، مصر، مطبعة السعادة سنة ١٩٦٤، ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

## الجزيرة الفراتية على عهد الإمبراطور
## هرقل ٦١٠ - ٦٤١م

كان للهزائم العسكرية التى منيت بها الجيوش البيزنطية على أيدى الفرس أثرها على أفول نجم الإمبراطور فوقاس، فقد استمر الفرس فى انتصاراتهم العسكرية التى أوضحناها فى بلدان الجزيرة الفراتية، والتى كانت مفتاحاً لغيرها من المناطق حيث نفذت الجيوش الفارسية إلى آسيا الصغرى واستولت على قيصرية وتوغلوا عبر كبادوكيا حتى وصلوا إلى أبواب خلقدونية، هذا بينما اكتسح السلاف ولايات تراقيا والليريا لأن الجيش الأوربى كان قد نقل ذلك الوقت عبر البسفور للوقوف ضد الفرس[١].

توغل الجيش الفارسى حتى انطاكيا ثم دمشق وقيليقية فاستولى على حصن طرسوس، وطرد البيزنطيين من أرمينيا، وتوجه صوب الشام وبيت المقدس وشرع فى غزو مصر، فسقطت الإسكندرية فى أيديهم سنة ٦١٩م ولم تلبث مصر بأسرها أن أصبحت تحت السيادة الفارسية[٢].

وهكذا عم الخراب والدمار فى الأراضى البيزنطية فى الوقت الذى انتهى فيه حكم أسرة جستنيان، وبدأت أسرة جديدة عندما أبحر هرقل ابن حاكم ولاية إفريقيا إلى القسطنطينية كمنقذ للبلاد من الكوارث التى نزلت بها وذلك عام ٦١٠م[٣].

لقد كان للاحتلال الفارسي لمناطق الجزيرة الفراتية، والتى كانت فى أيدى البيزنطيين أكبر الأثر على السياسة التعسفية التى اتبعها الفرس فى معاملة أهالى هذه البلاد فى وقت اشتدت فيه نار العداوة والبغضاء بين القوتين، وكانت المواجهة حياة أو موتا، فقد مارسوا شتى أنواع الضغط والعنف على أهالى تلك المدن وعملوا على فرض ضرائب باهظة عليهم، وأجبروهم على دفعها بالقوة، وساموا الناس سوء العذاب واغتصبوا أموالهم[٤].

---

(١) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص ٩٨.

(٢) Ostrogorsky, **op.cit**, p. 86,
Vasiliev, **op.cit.**, p. 196.

(٣) Baynes, Moss, **Byzantium**, Oxford, 1953, p. 85.

(٤) Ostrogorsky, **op.cit**, p. 98.

ويبدو أن أهالى بعض مدن الجزيرة الفراتية عارضوا سياسة التسلط الفارسى بسبب القوة التى اتبعوها معهم مما دفع كسرى إلى تخلية جماعية لأهلها، ونفيهم إلى فارس، ودخلها مع جيشه وجعلها قاعدة له استعداداً لمواجهة ردة فعل بيزنطة[١].

ومن وسائل العنف التى اتبعها كسرى ضد البيزنطيين حركة الاضطهاد التى قام بها ضد المسيحيين فيذكر جويدى: "إن كسرى قد أقسم حين انتصر فى الحرب ليأتين على جميع الكنائس فى الدولة ولا يترك ناقوساً منها". ومهما يكن فقد اضطهد النصارى جميعاً نساطرة ويعاقبة[٢].

كانت ردة الفعل البيزنطية قوية على يد الإمبراطور هرقل الذى توقف عن صد أعدائه وبدأ فى الإصلاحات الداخلية حتى يتمكن من تجهيز جيش يستطيع مواجهة هذه الأزمة الطاحنة، وفعلاً حقق ذلك بالتعاون مع بطريرك الكنيسة سرجيوس وبدأ يستعد للخروج لمواجهة أعدائه، ولا يعنينا من سلسلة حروبه إلا ما خاضه ضد أرض الجزيرة الفراتية جميعها فكانت خطته تهدف إلى استعادة الأراضى التى اغتصبها الفرس، وإجبارهم على قبول سلام عادل ومنصف[٣]، ولكن نظراً لأنه من العسير الاتجاه نحو الشام وفلسطين ومصر لاستعادتها، لكن كان على هرقل أن يضرب الفرس أولاً فى عقر دارهم وفى قلب فارس ذاتها أى أن الاتجاه الحربى سيكون ناحية الجزيرة الفراتية.

حقق هرقل انتصاراً عسكرياً فى بداية حملاته ضد الفرس فى المناطق التى احتلوها فى آسيا الصغرى ٦٢٢ – ٦٢٣م[٤]. وبعدها أرسل هرقل رسالة تحذير إلى كسرى إما أن يقبل الصلح والسلام وإلا فإنه سوف يهاجم بلاد فارس عما قريب، لكن كسرى لم يقبل عرض الصلح، ولم يعر تحذير هرقل أى اهتمام أو اعتبار لأنه لم يتصور أن البيزنطيين يمكنهم غزو فارس واعتقد أن هرقل لن يتوجه نحوها[٥].

---

(١) **Ibid.**

(٢) كريستنيس، المرجع السابق، ص ٤٧٣.

(٣) ليلى عبد الجواد، المرجع السابق، ص ٢٣٧.

(٤) Ostrogorsky, **op.cit.**, 144.

(٥) ليلى عبد الجواد، المرجع السابق، ص ٢٤١.

نجح هرقل فى غزو أرمينيا الفارسية وأذربيجان وجزءا من فارس، وبعد ذلك أصبحت مناطق الجزيرة محطاً للجيوش البيزنطية والتى عبرت جبال طوروس ووصلت إلى نهر دجلة بمشقة بالغة وعبرت النهر متجهة نحو ميافارقين ثم آمد "ديار بكر". وهناك توقفت للراحة فى الوقت الذى كان القائد الفارسى شهرباراز يترصد للإمبراطور هرقل، ولهذا أرسل الإمبراطور نخبة من رجال الجيش لتأمين العديد من الممرات. أما هو فتقدم نحو الشرق مع بقية الجيش تاركاً ديار بكر وتابع سيره حتى تقابل مع شهرباراز عند الفرات وكان على هذا النهر جسر من الحبال والأغصان والصوف فقطعه شهرباراز وسحبه إلى الشاطئ الآخر، فلما وصل لم يجد الجسر، ولكن وجد مخاضة فعبر منها النهر نهاية مارس سنة ٦٢٥م واحتل سميساط الفراتية[١].

استكمل هرقل دوره فى مواجهة القوات البيزنطية حتى إنه كان ينوى مهاجمة عاصمتهم المدائن "طسيفون" لذلك اتخذ طريقه ناحية مناطق الفرات فوصل إلى آشور ليتمكن من عبور جبال الأكراد الوعرة قبل حلول الشتاء الذى سيغلق الممرات بثلوجه، فبوصوله إلى آشور، ومهما كانت حالة الجو فإنه سوف يتمكن من الوصول إلى غايته فى طسيفون بلا عقبات، وفعلاً استكمل مسيرته حتى وصل إلى نينوى حيث دارت بينه وبين الفرس موقعة حامية الوطيس أسفرت عن انتصار بيزنطى ضخم وهزيمة فارسية كبيرة أعقبها سقوط قصر دستاجرد، ورغم أن هرقل كان قد ركز القوة إذ كان هو المنتصر إلا أنه عرض الصلح على كسرى وعقد اتفاقية سلام، لكن كسرى رفض لأن هرقل طالب بعودة الحدود إلى ما كانت عليه سنة ٦٠٢م مما أدى إلى نقمة شعبه عليه[٢].

لذلك قامت ثورة ضد كسرى انتهت بعزله، لعل من أسبابها إلى جانب التدهور السياسى والاقتصادى والعسكرى كان غضب المسيحيين فى مناطق الجزيرة، فبعد أن كان يحسن معاملتهم رجع عن ذلك[٣]، لذلك كان لكسرى أبناء كثيرون فتجاوز أكبرهم وهو شيرويه وهو ابنه من ماريا ابنة الإمبراطور موريس – وعزم على تنصيب مردانشاه وهو

---

(١) **Ibid**, pp. 208 - 209.

(٢) Stratos, **Ibid**, pp. 216 - 217.

(٣) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٤٧٥.

ابنه من شيرين، ولما علم شيرويه بنية أبيه فى تتويج أخيه عزم على الدفاع عن حقوقه[١]. كما قام بمساعدة هرقل فى إخراج الأسرى البيزنطيين من السجون الفارسية، ثم دبر مؤامرة للقبض على أبيه، حيث قتله وتوج شيرويه ملكاً على الفرس فى ٢٥ فبراير سنة ٦٢٨، وبعدها نجح هرقل فى استعادة جميع البلدان التى احتلها كسرى فى مصر والشام والجزيرة الفراتية.

وخرجت جميع مدن الجزيرة الفراتية من التبعية الفارسية إلى التبعية البيزنطية حيث اعترف هرقل بشيرويه ملكاً على الفرس وأشار إليه على أنه ابنه ليشير بذلك إلى سمو مكانته، إذ أصبح هرقل الأب الروحى لملك الفرس. ولم يكن ذلك فقط، إذ أن شيرويه أعلن أثناء مرضه الذى مات فيه[٢] بأن يكون الإمبراطور البيزنطى وصياً على ابنه كسرى الثانى رغم أنه أعلن ذات مرة فى الماضى أن الإمبراطور البيزنطى ليس إلا عبداً له غير أن الزمن تغير وانعكس الوضع، وأعلن شيرويه أن ابنه ووريثه من الحكم عبد للإمبراطور البيزنطى[٣].

توفى شيرويه بعد أن حكم حوالى ستة أشهر، فولوا على العرش ابنه أردشير الثالث وكان طفلاً فنصب عليه وصياً، لكن حدثت مشاكل من قبل القائد العسكرى الفارسى شهرباراز الذى رفض قبول اردشير حاكماً، لذلك اتصل بالإمبراطور البيزنطى هرقل وزين له مساعدته فى الإطاحة بأردشير رغم الاتفاق الذى كان بينه وبين أبيه شيرويه على تنصيبه. وفعلاً تحالفت قوات القائد الفارسى شهرباراز مع القوات البيزنطية وقاموا بقتل أردشير بعد أن حكم عاماً ونصف عام فقط[٤].

وبعدها بدأ العد التنازلى للعرش الفارسى السلسلة من الأكاسرة وفوضى عارمة طوال

---

(١) راجع عن ذلك تفصيلياً، كريستنسن، من ٤٥٧، ٤٧٤ – ٤٧٧ وكذلك الكرديزى، زين الأخبار، جـ١، ص ٥٧.

(٢) تجمع المصادر أنه مات بمرض الطاعون.
الكرديزى، المصدر السابق، ص ٥٧، كريستنسن، المرجع السابق، ص ٤٧٨،
محمد عبد القادر، المرجع السابق، ص ٩٨، حيث تولى ابنه أزدشير الثانى.

(٣) Ostrogorsky, **op.cit.**, p. 98.

(٤) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٤٧٨.

حياة الإمبراطور هرقل حتى قيل إنه فى نهاية عهد هذه الأسرة وفى خلال أربع سنوات تولى عرش فارس عشرة ملوك على الأقل[١].

ونريد أن نعرف الآن ما هو مصير بلدان الجزيرة الفراتية التى أصبحت الآن تحت السيادة البيزنطية الكاملة وخرجت من السيادة الفارسية، فقد أصبحت بلدانها مسرحاً للعمليات العسكرية، وأضرت الحروب بأحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فلم تكن السياسة البيزنطية فى مدن الجزيرة الفراتية أحسن حالاً من السياسة الفارسية، فقد كانوا يمارسون أساليب الظلم والابتزاز ضد الفلاحين حتى الأحرار منهم، وفرضت عليهم الإسهام فى المشاريع العامة كشق الترع وبناء الجسور والمنشآت ونقل المحاصيل إلى مخازن الدولة وإطعام الجيوش المارة فى مناطقهم[٢]. وقد أراد الله سبحانه وتعالى الخير السريع لهذه البلاد، وليكون بعد العسر يسراً، وذلك لأن البيزنطيين على عهد الإمبراطور هرقل لم يهنأوا بثمرة انتصاراتهم واستعادتهم لأرضهم وولاياتهم وللبلاد الخاضعة للنفوذ الفارسى، وذلك لأنه تزامن مع عهد هرقل ظهور قوة جديدة بالجزيرة العربية قوة عظمى هى قوة الإسلام الذى تكونت له دولة ثابتة الأركان بالمدينة المنورة، واستقرت الدعوة بعد فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم لمكة المكرمة ودخول القبائل العربية فى الإسلام.

هذه القوة الجديدة قلبت ميزان القوى العالمى وضربت هاتين القوتين العظميين بقوة الإسلام، حيث بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة السلمية للقوى الدولية المعاصرة، ولما لم تستجب، صدع لأمر ربه بإذاعة الإسلام ونشره للناس كافة، فكانت حركة الفتوحات الإسلامية على عهد خلفائه الراشدين حيث سقطت دولة الأكاسرة تماماً وانحلت ودخلت جميع أملاكها فى نطاق الدولة الإسلامية. أما الدولة البيزنطية فقد انحسرت فى حدود ضيقة وضاعت منها ولاياتها، وأهمها بلدان الجزيرة الفراتية التى تحولت إلى بلدان تدين بالطاعة للدولة الإسلامية.

**أولاً : المصادر العربية**

ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبى، ت. ٣٨٠هـ،

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٨٠.

(٢) بيغوليفسكيا، العرب على حدود بيزنطة، ص ٢٦٧.

صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م.

الإدريسى، أبو عبد الله محمد، ت. القرن السادس الهجرى،

نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، سنة ١٩٨٩م.

الكرديزى، أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك، ت. ٤٤٢ - ٤٤٣هـ، زين الأخبار، ترجمة عفاف السيد زيدان، القاهرة، المطبعة المحمدية، ط١، سنة ١٩٨٢م.

المسعودى، أبو الحسن على بن الحسين بن على، ت. ٣٤٦هـ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمود محيى الدين عبد الحميد، مكتبة السعادة، القاهرة، ١٩٦٤م.

ياقوت الحموى، أبو عبد الله، ت. ٦٢٦هـ، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م.

**ثانياً : قائمة المراجع العربية والمعربة**

أحمد فخرى، دراسات فى تاريخ الشرق القديم، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤، سنة ١٩٥٧م.

أسد رستم، الروم فى سياستهم وحضارتهم وديانتهم وثقافتهم، بيروت، ١٩٥٥م.

بيغوليفسكيا، نينا فيلوتورفنا، العرب على حدود بيزنطة وإيران، ترجمة صلاح الدين عثمان، الكويت، ١٩٦٤م.

جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٦٨.

جوزيف نسيم يوسف، تاريخ الدولة البيزنطية، دار المعرفة، الإسكندرية، ١٩٨٨م.

جيبون، إدوارد، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده، القاهرة، ١٩٦٩م.

زبيدة عطا، الدولة البيزنطية من قسطنطين إلى أنستاسيوس، القاهرة، دار الفكر العربى، ط١، ١٩٧٧م.

سعاد بنت أحمد العمرى، الجزيرة الفراتية من الفتح الإسلامى حتى نهاية العصر الأموى، دراسة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، سنة ١٤١٦هـ.

السيد عبد العزيز سالم، دراسات فى تاريخ العرب، عصر ما قبل الإسلام، جـ١،

الإسكندرية، ١٩٦٧م.

كريستنس "أرثر"، إيران فى عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، لجنة التأليف، ١٩٥٧م.

ليسترنج، كى، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرانسيس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.

ليلى عبد الجواد إسماعيل، الإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور هرقل، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٥م.

محمد بيومى مهران، دراسات فى تاريخ العرب القديم، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط٣، ١٩٨٢م.

محمد عبد القادر محمد، إيران منذ فجر التاريخ حتى الفتح الإسلامى، القاهرة، مكتبة الأنجلو، ط١، ١٩٨٢.

محمد فتحى الشاعر، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٩م.

نولدكه، تيودور، أمراء غسان من آل جفنة، ترجمة قسطنطين رزيق، وبندلى خورى، بيروت، ١٩٣٣م.

هسى، ج.ع، العالم البيزنطى، ترجمة رأفت عبد الحميد، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٢م.

**المصادر الأجنبية**

Barker, G.P.,
**Justinian and the later Roman Empire**, London, 1966.
Baynes, and Moss,
Byzantium, Oxford, 1953.
Bury, J.B.
**History of the later Roman Empire**, London, 1923.
**Cam, Med. Hist**. Vol. XII.
Diel, C.
**Buzantium, greatness and decline**, T. from French, by Naomi Walford, New Jersey, 1957.

Gibon, E.
**The decline and Fall of the Later Roman Empire**, London, 1911.
Jones, A. H. M.
**The later Roman Empire**, Oxford, 1973.
Ostrogorsky, G.
**History of the Byzantine State**, Oxford, 1956.
Procopius of Caesarea,
**History of Wars**, T. H.B. Dewing, New Yor, 1914 – 1945.
Stratos, A. N.
**Byzantium in the seven the century**, Amster dam, 1968.
Vasiliev, A. A.
**History of the Byzantine empire**, Madison, 1964.

* * *